جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

بسم الله الرحمن الرحيم

السنن الإلهية وخصائصها

بقلم الدكتور رشيد كهوس

أولا- تعريف السنن الإلهية:

أ- السنة لغة: تطلق السنة في اللغة على: "الطريقة والسيرة، حميدة كانت أو ذميمة"[1]، "وسنّ الماء على وجهه: صبّه صبًّا سَهْلا، (...) وسَنّ الأمير رعيته: أحسن سياستها. (...) وسَنّ اللهُ على يدي فلان قضاء حاجتي: أجراه"[2].

---

[1] لسان العرب، لابن منظور، مادة (سنن)، 225/13. مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، مادة (سنن)، ص143. المصباح النير، لأحمد الفيومي المقرئ، مادة (سنن)، ص152.

[2] أساس البلاغة، للزمخشري، حرف السين مادة (سن)، ص418.

قال الشاعر: "فلا تجزعَنْ من سُنة أنتَ سرتها فـــــأوّلُ راضٍ سنةً من يسيرها"[3].

وقال لبيد: "من معشر سنَّت لهم آباؤهم ولكـــل قـــوم سُـــنَّة وإمَامُها"[4].

ب- السنة اصطلاحا:

السنة في القرآن الكريم: أنزل الله تعالى وتقدس القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وكان معجزة خالدة على مر الأزمان والعصور،أعجزت الفصحاء، والشعراء، والأدباء، وبهذا فإن ألفاظه لا تخرج عن معانيها في

اللغة العربية إلا بقرينة، فلفظ السنة في القرآن الكريم أُطلق على ما هو عليه في لغة العرب، أي "الطريقة والخطة المتبعة"[5]، وسنة الرسل:"هي الشرائع الإلهية المنزلة لهداية الأمم"[6]، والسُّنن جمع سنة، قال العلامة الراغب الأصفهاني:"وسنة الوجه طريقته، وسنة النبي ρ: طريقته التي كان

---

[3] البيت للشاعر خالد الهذلي يخاطب أبا ذؤيب الهذلي. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 96/4.

[4] تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 96/4.

[5] معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مادة (سنن)، 624/1.

[6] موسوعة الألفاظ القرآنية، مختار فوزي النَّعال، مادة: (السنة)، ص413.

يتحراها، وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حِكمته، وطريقة طاعته"[7]، و"ما جرى به نظامه تعالى في خلقه"[8].

السنة عند المحدثين: هي "ما أثر عن النبي ρ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية أو خُلقية أو سيرة، سواء كانت قبل البعثة أو بعدها، وهي بهذا ترادف الحديث عند بعضهم"[9].

معنى السنن الإلهية:

يقول الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله- في تعريفه لسنة الله:"سنته سبحانه وتعالى: عادته المعلومة"[10].

ويعرفها الكاتب الناقد المغربي الأستاذ محمد جابري بقوله:"إنها جملة المواثيق والعهود التي عهد الله بها لكل شيء في هذا الوجود. أو بعبارة

---

[7] مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة (سنن)، ص429. بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، مادة:(بصيرة السنن)، ص267.

[8] القاموس القويم في القرآن الكريم، إبراهيم أحمد عبد الفتاح، 331/1.

[9] السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، ص57. مكانة السنة في بيان الأحكام الإسلامية والرد على ما أثير حول حجيتها وروايتها، علي الخفيف، ص9.

[10] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، شمس الدين أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، ص408.

أصح هي كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، أو بعبارة أدق فالسنن هي كل أفعال الله"[11].

ويعرفها الدكتور عبد الكريم زيدان بقوله:"هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"[12].

أما تعريفي للسنن الإلهية فهو كالآتي: «سنن الله قدر على مقتضاه يدبر الله هذا الكون»، وأقول بتفصيل: «السنن الإلهية: هي أقدار الله تعالى وعهوده الثابتة وعهوده الحقة، وكلماته التامات، التي لا تبديل لها ولا تحويل يعتريها ولا تغيير يشملها،ولا تحابي أحدا مؤمنا كان أم كافرا».

ثانيا- خصائص السنن الإلهية:

إن خصائص السنن الإلهية تحدد شكل مسارها، وتبين كيف تسير هذه السنن عبر وسائل مضبوطة، فلا يمكن –مثلا- فهم سنن الله بعزلها عن ربانيتها، ولا يمكن فهمها كذلك دون وسطيتها...

---

[11] انظر كتبه الآتية: التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين، ص66 و ص81. ومنهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية: القرض الربوي من أجل السكن –نموذجا-، ص66. والدراسات المستقبلية بين السنن الإلهية والدراسات المعاصرة، ص30. والعلوم الاحترازية والوقائية القرآنية دراسة مقارنة مع توقعات الدراسات المستقبلية لكل من فوكوياما وهنتغتون، ص27، ضمن سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم والمعارف.

[12] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص13.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

والكون كله يسير وفق سنن إلهية كاملة لا تبديل لها ولا تحويل، فليس هناك شيء واحد في هذه الحياة يحدث اعتباطا وعشوائية، وإنما يجري كل شيء فيها وفق سنن الله تعالى التي لا تنخرم ولا تحيد، ولا تتخلف، ولا تحابي أحدا من الخلق، ولا تستجيب لأهواء البشر وطموحاتهم الشخصية، ومآربهم الفانية.

وعليه، فما دام هذا الكون بما فيه خاضعا لسنة الله تعالى، وما دامت سنة الله هي قدره الذي على مقتضاه يدبر ملكه، فإن لها خصائص ربانية تبين عدالتها وجريانها على جميع البشر، واستمرارها على مدى الأزمان.

تلك الخصائص وإن تعددت وتنوعت فإنها تنبثق من خصيصة الربانية وترجع إليها، ذلك أن القوانين البشرية التي يسطرها البشر لأنفسهم بعيدا عن هدي الله عز وجل تحتاج دائما إلى المراجعة والتطور وإعادة الصياغة والتحرر من قواعدها ومقوماتها، تتعرض هذه القوانين لكل هذا لأنها من صنع البشر. أما قانون الله وناموسه الكوني فثابت لا يتغير وضوابطه لا تتعطل ولا تتحول، لأن واضعه هو خالق البشر الذي يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف يكون.

فهذا الكون بما فيه يخضع لنظام عادل وضوابط ربانية، فكل شيء يدور في فلكه {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}(سورة الفرقان: من الآية 2)، فلابد

لكل شيء من فلك يدور فيه، ولا بد لهذا القانون من ضوابط وإلا انتهى الأمر إلى الفوضى وإلى الدمار.

ومن ثم كانت سنن الله تتسم بالربانية لا يعتريها النقص ولا التغير ولا التطور فهي صالحة لكل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فأول تلك الخصائص:

1-الربانية:

إن كون ربانية السنن الإلهية يميزها عن باقي التصورات الفلسفية والمعتقدات الوثنية التي ينشئها الفكر البشري وتصوراته الخيالية.

وكون سنن الله ربانية المصدر، يعني أنها مرتبطة بالله تعالى، منه تستمد وبنوره تستضيء، وهذا ما يفرغ عليها قدسية لا نظير لها، لأن هذه السنن صادرة من صاحب الخلق والأمر في هذا الكون، {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}(سورة الأعراف: من الآية 54)، ولم تصدر من البشر الذين يحكمهم القصور والعجز، والتأثر بمؤثرات الزمان والمكان.

ونفهم من هذه الخصيصة أن الله تعالى وتقدس هو المدبر الحقيقي لهذا الوجود بمشيئته المطلقة، وتدبيره الحكيم.

إن التأكيد القرآني على ربانية السنة التاريخية وعلى طابعها الغيبي، يستهدف ربط الإنسان، حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون، بالله سبحانه.

وهذه الربانية التي تتميز بها سنة الله، هي عكس ما يعتقده اتجاه التفسير الإلهي للتاريخ الذي تمثله مدرسة المفكرين اللاهوتيين المسيحيين.

وهذا يبين لنا الفرق الشاسع والبون الواسع بين الاتجاه القرآني في ربط سنن التاريخ بعالم الغيب، وبين ما يسمى بالتفسير الإلهي للتاريخ، الذي يتبناه اللاهوت.

2- الثبات:

بما أن سنن الله ربانية المصدر، وليست نتاج فكر بشري يعتريه النقص، فإنه من هذه الخصيصة تنبثق باقي الخصائص، فتكون سنن الله ثابتة لأنها تقتبس نورها من مشكاة ربانية؛ وثبات سنة الله يعني استقرارها ودوامها؛ فلا تتبدل ولا تتحول، يقول الحق سبحانه وتعالى: [سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً] سورة الإسراء: 77، ويقول الله عز

اسمه: [سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً] (سورة الفتح:23).

ولا يعني هذا الجمود في قالب حديدي وإنما يعني الحركة –التي تعتبر قاعدة في التصميم الكوني والحياة البشرية- في مضمار هذه الخصيصة حتى لا تسود الفوضى والحيرة في الكون، بل تلك الحركة الكونية التي تدور في دائرة الثبات تضفي عليها طمأنينة لا نظير لها، وتضمن للحياة البشرية مزية التناسق مع النظام الكوني المتناسق والمتماسك، ويقيها شر الفوضى واتباع أهواء البشر التي لا يضبطها قانون سوى تحقيق مصالحها وطموحاتها الشخصية.

والثبات عنصر فعال ذو أثر كبير في نيل الأوطار وبلوغ المرام. "ولا يبلغ الهدف السامي إلا الصابرون الذين أدركوا أنه لكل أجل كتاب، فلم يستعجلوا النتائج قبل أوانها، بل أدركوا الثمرة في إبانها، فكانوا منارا للهدى، ودليلا على الله"[13].

ولا شك أنه بثبات سنة الله واستمرارها تثبت النفس وتطمئن ويحيطها الاستقرار، الذي يكون توطئة لمعرفة ما لكل امرئ وما عليه، فيعتبر

---

[13] التجديد في دراسة الحديث النبوي على نور السنن الإلهية، ص111.

المُبصر ويحذر المخطئ، ويتحسس كل إنسان أين تسير بـه قدماه فيُحْجِمُ أو يُقْدِمُ –مستندا إلى ظنه- لمصيره ومآله في دنياه وأخراه.

والهدف الثاني من ثبات السنن الإلهية وعدم تغييرها هو سقوط القول ب(الصدفة) أو (الطبيعة) فيما لا يستطيع العقل البشري الوقوف على علله وأسبابه، إذ لو لم تكن السنن الجارية قائمة على الثبات لاتسع المجال للعبثية ولبسط القول بالصدفة في نظام حركة الكون والأحياء والأنفس.

ولو لم تكن سنن الله عز وجل ثابتة على الحال المذكور، لما كان في هذا الكون توازن ولا استقرار ولا استحال استمرار الحياة، ولكانت الفوضى حينئذ هي السمة السائدة.. وهذا يتنافى مع الواقع المشهود، الذي تدلنا كل صغيرة وكبيرة فيه على آيات التوازن والاستقرار التي تقود إلى استمرار الحياة إلى أجلها المقدر لها.

ونحمد الله الذي وقانا شر الفلسفات المادية –التي لا تثبت على حال- الجاهلة بحقائق هذا الكون، التي مزقت الفكر الغربي شر ممزق، وتركته يضل السبيل في كهوف الجدليات المظلمة...

3- الاطراد:

الاطراد: "اطرد الأمر تبع بعضه بعضا وجرى واطرد الحد تتابعت أفراده وجرت مجرى واحدا كجري الأنهار"[14].

وعليه، فالمقصود باطراد سنة الله تتابع حصولها، أو تكرار آثارها على الوتيرة نفسها كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها[15]، يقول الله جل ذكره: [فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً] (سورة فاطر: من الآية43).

وهكذا نجد أن اطراد سنة الله يعني أنها ليست عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق.

ولهذا قص علينا القرآن الكريم قصص الغابرين وما حل بهم من جراء ما اقترفوه من مخالفات للأوامر الإلهية، لنأخذ الدروس والعبر، ونرجع إلى الصراط السوي، حتى لا يصيبنا ما أصابهم، ولولا اطراد سنة الله لما كانت هناك دعوة للسير في الأرض والوقوف على آثار السابقين وأخذ العبرة والدروس مما أصابهم، يقول الحق سبحانه وتعالى: { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ

---

[14] كتاب الكليات، لأبي البقاء الكفوي، فصل الألف والطاء، ص199.

والاطراد يضم مجموعة من المعاني "لأنه يضم أجزاء المدود ويجمعها، ويتبع المحدود بحيث يوجد حيث وجد ويستقيم بذلك ويستمر عليه". المعين في تفسير كلام الأصوليين، عبد الله ربيع عبد اله محمد، ص52.

[15] أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، ص76.

سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}(سورة آل عمران:137)، ويقول جل وعلا: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}(سورة الحشر: من الآية2).

يقول إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي –رحمه الله:" إنه لولا أن اطراد العادات[16] معلوم لما عرف الدين من أصله، فضلا عن تعرف فروعه؛ لأن الدين لا يعرف إلا عند الاعتراف بالنبوة، ولا سبيل إلى الاعتراف بها إلا بواسطة المعجزة، ولا معنى للمعجزة إلا أنها فعل خارق للعادة، ولا يحصل فعل خارق للعادة إلا بعد تقرير اطراد العادة في الحال والاستقبال كما اطردت في الماضي، ولا معنى للعادة إلا أن الفعل المفروض لو قدر وقوعه غير مقارن للتحدي لم يقع إلا على الوجه المعلوم في أمثاله، فإذا

وقع مقترنا بالدعوة خارقا للعادة، علم أنه لم يقع كذلك مخالفا لما اطرد إلا والداعي صادق"[17].

فهي سنن واقعة آتية من الأزل، فهي باقية وماضية إلى الأبد لا تهرم أبدا، ولا يصيبها الموت، كما تهرم القوانين المدنية وتموت.

---

[16] يقصد بالعادات: السنن.

[17] الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، 568/2.

فسنة الله مطردة تشمل الماضي والحاضر والمستقبل، واطرادها لا يعني حتميتها. وهنا يمكن القول، بأنه بالرُّغم من ثبات سنة الله في الكون واطرادها، فالمشيئة الإلهية طليقة لا يَرِدُ عليها قيد ما، مما يخطر على فكر البشر البعيد عن أصول التوحيد الإسلامي. وهو سبحانه وتعالى يبدع كل شيء ويخلقه بمجرد توجّه مشيئته إلى إبداعه وخلقه. فليس هناك قاعدة ملزمة ولا قالب مفروض مُلْزم للمشيئة الإلهية في الفعل، فهو عز وجل يفعل ما يشاء كيف يشاء حين يشاء، لا راد لأمره، ولا معقّب لحكمه[18].

والحاصل أن جريان سنن الله وتحققها يكون بقضاء الله Y وقدره وحكمته، يستوي في ذلك سنن الله الجارية[19] والخارقة[20]. وإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئا فإنه لا ينفذه بإبطال سننه المطردة وأقداره الماضية في خلقه، ولكن بالترجيح أو التوفيق بينها، كما قال جل ثناؤه: { ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}(سورة طه: من الآية40) وهذا ما يخالف مبدأ الحتمية وينقض مزاعم القائلين بها.

---

[18] السنن الإلهية، مجدي عاشور، ص105.

[19] معنى كونها سنن الله جارية أنها يمكن أن تتحقق –بقدر من الله عز وجل- كلما توفرت شروطها ومقوماتها، وتتم المواجهة بمقتضاها.

[20] السنن الخارقة: أي بالنسبة للبشر يعتبرونها خوارق، أما عند الله تعالى فليس عنده شيء اسمه خوارق، فكل شيء يتحرك بإرادته ومشيئته وحكمته العادلة وإن بدا لنا أمرا خارقا للعادة.

ونمثل لاطراد سنن الله بسنة الله في عقاب من تكبر على طاعته وطاعة رسله، بقول الحق جل وعلا:{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}(سورة المزمل: 15-19).

4- العموم[21]:

المقصود بعموم سنة الله، كون حكمها يسري على الجميع بدون استثناء؛ لا تستحيي من أحد ولا تحابي أحدا، بغض النظر عن كونه مؤمنا أم كافرا، أو أبيض أو أسواد، أو عربيا أو عجميا، يعيش في رقعة إسلامية أو غير إسلامية، غير مقتصرة على هذا أو ذاك، الكل سواسية أمام حكمها، وصدق الله تبارك وتعالى القائل: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً}(سورة النساء:123)، والقائل أيضا:{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}(سورة القمر:43)، فالقضية ليست انتماء إلى رقعة إسلامية، أو جنس عربي أو غير ذلك، وإنما القضية قضية عمل وجزاء، وفي هذا

---

[21] قال الشيخ صديق خان القنوجي في تعريفه الاصطلاحي للعام:"هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وَضْع واحدٍ دَفعة". الجامع لأحكام وأصول الفقه، ص201.(في كتب الأصول المتقدمة غنية)

السياق يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله-:" الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"[22].

وعلى الرُّغم من ذلك فالغاية من ذكر أحوال الأمم الغابرة هي أن تترسخ السنة في نفوس المؤمنين، وأن يفهم الناس أن الآخر سيُفعل به ما فُعل في الأول حين يسير في طريقه. وكل تلك القصص والأخبار تتلوها تعقيبات تؤكد هذه السنة والقاعدة التي صارت علما [23].

ومن هنا، فلولا عموم سنة الله واطرادها وثباتها لما ذكرت لنا قصص الأمم السابقة، إذ ما يجري عليها يجري على غيرها في باقي الأزمان والأمصار، فأي أمة تنكبتها –أي سنة الله- لقيت جزاءها عاجلا أم آجلا، وهذا ما سجله القرآن الكريم في غزوة أُحُد، لما أخطأ الرماة وخالفوا الأوامر النبوية لقوا جزاءهم، قال الحق جل ذكره: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[24]، فلا محاباة ولا تمييز أمام سنة الله.

---

[22] الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، 63/28.

[23] اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، ص132.

[24] سورة آل عمران:165.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

كما خصص القرآن الكريم جانبا كبيرا من سوره لعرض قصص الغابرين، لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم من تغير أحوالها إيجابا أم سلبا؛ حين اختارت لنفسها طريقا معينا، ولينبهنا كذلك إلى أن

المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن والنواميس المطردة الثابتة العامة، التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية.

قال الحق جل وعلا: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89))(سورة هود). فسنن الله لا تحابي أحدا وقصص القرآن كثيرة: قصة قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى... لما خالفوا أنبياءهم حصدتهم سنة الله وكانت لهم بالمرصاد...

وهكذا فإن ما وقع للأمم والمجتمعات الماضية التي تكررت وقائعها رغم اختلاف أشكالها وتباين الظروف الزمنية والمكانية التي وقعت فيها، يسجل القرآن الكريم وجود قانون أو سنة كونية مطردة تحكم سير هذه المجتمعات كما دل على ذلك استنطاق جزئياتها إذ يصرح القرآن أن لله سننا في الأمم والجماعات، يدعو إلى التفكير فيها والتدبر في مغزاها واكتشاف دلالتها الاجتماعية ولمس معانيها التاريخية.

فالحديث القرآني يكشف على أن هناك حوادث تاريخية متشابهة في دلالتها ومضمونها وإن اختلفت في شكلها، وهذا التماثل هو الذي يضمن لهذه الحوادث نوعا من التكرار والاطراد، ومن ثم يخبر القرآن الكريم أن هذا الاطراد غير قابل للتبديل والتحويل.

وهذه السنن لها وظيفة اجتماعية هامة فهي تكشف عن أسباب الخلل وتزيل الستار عن أسباب الدمار وتثير في الإنسان فطرة الخير والصلاح، وتدعوه إلى الاستقامة ومراجعة مواقفه ووقفاته والعمل على ضبط حركاته. ومن جهة تكشف هذه السنن عن تجربة تاريخية كاملة تجد فيها الشعوب والجماعات ما ينير طريقها ويفتح بصيرتها للوقف على نتائج اختيارها[25].

وبناء على ذلك؛ فإن النواميس التي يتحدث عنها القرآن الكريم تتميز بأنها نواميس مطلقة صالحة لكل زمان ومكان، متى توفرت مقوماتها وتحققت شروطها الموضوعية في الزمان والمكان، فهي عامة.

هذا، والآيات الدالة على عموم سنة الله كثيرة، أذكر منها، قوله جل جلاله: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}(سورة البقرة:214). قال الشيخ أبو السعود

---

[25] منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، محمد محمد أمزيان، ص189-190.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

في تفسيره: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم":" { أَمْ حَسِبْتُمْ } خوطب به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حثًّا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفَرَة وتحمُّل المشاقِّ من جهتهم إثر بيانِ اختلافِ الأممِ على الأنبياء عليهم السلام ، وقد بُيّن فيه مآلُ اختلافِهم وما لَقِيَ الأنبياءُ ومَنْ معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرِهم النصرُ وأم منقطعة والهمزةُ فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم { أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم } من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين أي والحال أنه لم يأتِكم مثلُهم بعد ولم تبتلوا بما ابتُلوا به من الأحوال الهائلةِ التي هي مَثَلٌ في الفظاعة والشدّة وهو متوقَّعٌ ومنتظَرٌ { مَسَّتْهُمْ } استئنافٌ وقعَ جواباً عما ينساقُ إليه الذهن كأنه قيل وكيف كان مثلهم فقيل : مسَّتْهم { البأساء } أي الشدَّةُ من الخوف والفاقةِ { والضراء } أي الآلامُ والأمراضُ { وَزُلْزِلُواْ } أي أزْعجوا إزعاجاً شديداً بما دَهَمهم من الأهوال والأفزاعِ"[26].

[26] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 215/1.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

وقولـه تقدسـت أسـماؤه: {أَفَلَـمْ يَسِـيرُوا فِـي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـافِرِينَ أَمْثَالُهَـا}[27]. قـال الشـيخ أبـو السعود في تفسيره:" { أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض } أي أقَعدُوا في أماكنِهم فلم يسيرُوا فيها { فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ } من الأممِ المكذبـةِ فـإنَّ آثـارَ ديـارِهم تنبـىءُ عـن أخبـارِهم . وقولُـه تعـالى : { دَمَّـرَ الله عَلَيْهِمْ } استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من الكلامِ كأنَّـه قيلَ كيفَ كـان عـاقبتُهم فقيلَ استأصلَ الله تعالىَ عليهم ما اختصَّ بهم من أنفسِهم وأهليِهم وأموالِهم ، يقـالُ دمَّـره أهلكَـه ودمَّـر عليـهِ أهلـكَ عليـهِ مـا يخـتصُّ بـهِ . { وللكـافرين } أي ولهؤلاءِ الكافرينَ السائرينَ بسيرتِهم { أمثالها } أمثالُ عواقبِهم أو عقوبـاتِهم لكنْ لا علـى أنَّ لهـؤلاءِ أمثـالَ مـا لأولئكَ وأضـعافَهُ ، بـلْ مثلَـه ، وإنمـا جُمـعَ باعتبارِ مماثلتِه لعواقبَ متعددةٍ حسبَ تعددِ الأممِ المُعذبةِ"[28].

فليس المـراد مـن السـير فـي الأرض هنـا خصـوص السـفر، بـل مطلـق التعرف على أحوال الماضين بأي سبيل، وليس من شك أن من المفيد للعاقل أن يبحث عن أحوال الناس، ويطلع على الأسباب الموجبة لضعفهم، أو

---

[27] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 94/8.

[28] سورة محمد:10.

قوتهم، فيتعظ ويعتبر، ويسترشد إلى ما فيه خيره وصلاحه، ومن أجل هذا قال عز من قائل: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ}[29]. هذا إشارة إلى ذكر السنن الحكيمة التي من سار عليها ظفر، ومن تنكبها خسر.. ولابد من البيان للناس كافة، ليكون حجة على من عصى، وهدى وموعظة لمن اتقى، فإنه السبيل الوحيد الذي يميز العاصي والمطيع.. ولولا البيان لا طاعة ولا عصيان [30].

إضافة إلى ذلك، فقد تحدثت السنة المطهرة عن عموم سنة الله، أذكر منها حديثا واحدا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ρ فَقَالَ :π يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ،إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ[31]وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

---

[29] سورة آل عمران:138.

[30] التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، 4/159-160.

[31] أخذوا بِالسِّنِينَ: أي المجاعة والقحط. فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين عبد الرؤوف المناوي،1/1053.

عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ [32].

لقد كان الأمر كذلك، أخذ الأعداء بعض ما في أيدينا –كما جاء في الحديث الشريف-، ضاعت الأندلس "الفردوس المفقود" كما تسمى، اغتصبت فلسطين، واحتلت بلاد ما وراء النهر، ومُزِّق العراق، وخربت دولة آل عثمان، وسقطت دول... كل هذا نتيجة مخالفة سنة الله التي لا تحابي أحدا.

5- الواقعية:

فإذا كانت سنن الله ربانية المصدر، فيكون طبيعيا أن تكون واقعية، تتعامل مع حقائق موضوعية ذات وجود حقيقي، وأثر واقعي إيجابي، ومع

الواقع المشهود، لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع مثاليات خيالية لا مقابل لها في حياة الناس ولا وجود.

ثم إن الناموس الذي يضعه الله تبارك وتعالى للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك، لأنه قابل للتحقيق الواقعي في الحياة البشرية بأسرها..

---

[32] سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح4019، وقال الشيخ الألباني حديث حسن.

وبمعنى آخر؛ فكون سنن الله واقعية؛ ينفي عنها الخيال، ويجعلها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالواقع وما يدور فيه، فهي لا تنفصل عنه تماما، وهكذا تأتي سنن الله الإلهية لا لتسبح في بحار الخيال، ولا لتحلِّق في أجواء المثالية المُجنَّحة، فتفرض إنسانا لا وجود له في الواقع، كما صنع الفارابي في مدينته الفاضلة وأفلاطون في جمهوريته الخيالية، وكما تخيَّلت الشيوعية المادية الغافلة عن الله والدار الآخرة في أذهانها عن المجتمع الذي تنعدم فيه الفوارق والطبقية وتزول الملكية، ولا يحتاج إلى دولة ولا قضاء ولا شُرطة ولا سجون!.

وهنا يتضح لنا أن سنن الله "تفسر أحداث الواقع أفضل تفسير وأبينه. نزل القرآن منجما حسب ما اقتضته الضرورة الظرفية، (...) وجاء يسنن قوانين خضعت لها كل ظروف الزمان والمكان.

وإذا ما أخذنا سنة من السنن وعرضناها على الأحداث المعاصرة مثلا تبين بما لا مجال للشك فيه بأن الغرب بفلسفاته الاجتماعية والعلوم الإنسانية ما استطاع فك لغز ترابط الأحداث، وعوامل الصراع السياسي، وذلك لإعراضهم عن سنن الله"[33].

---

[33] منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية، محمد جابري، ص85.

ثـم إن واقعيتهـا كـذلك تتجلـى فـي تسـخير الله تعـالى النـاس لفعلهـا، فالمستكبر الظالم مثلاً عندما يعاقب، يعاقب على أيدي بشر آخرين، ممن هم أشد منه قوة بطشا، فينتقم الله عز وجل من الظالم بظالم مثله، وكذلك الكفار المستكبرين المعاندين، يعاقبهم الله تعالى بتسليط المؤمنين المجاهدين الصـادقين علـيهم، قـال الله عـز اسـمه: {ذَلِكُـمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُـوهِنُ كَيْـدِ الْكَـافِرِينَ}[34]، وقـال جـل ثنـاؤه: { قَـاتِلُوهُمْ يُعَـذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْـدِيكُمْ وَيُخْـزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة/ 14، 15].

ولهذا فلم تنس السنن الإلهية في توجيهاتها، وقوانينها واقع الكون والحياة، وواقع الناس بكل ظروفه وملابساته. لأن تلك السنن مصدرها صاحب الخلق والأمر الذي يعلم كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، لذلك جاءت تلك السنن منضبطة بهذا الضابط تدل الإنسان على ما يصلحه ويرقى به زمرة المرضيين، وتحذره من الفساد وما يهبط به إلى الحضيض.

---

[34] سورة الأنفال: 18.

تلك إذن، هي واقعية السنن لا تكلف الناس شططا، ولا ترهقهم عسرا، ولا تجعل عليهم حرجا، بل ترشدهم إلى سواء السبيل، تعالجهم إذا مرضوا وتساعدهم على الشفاء لمن أراد الشفاء. {إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[35].

6- الشمولية:

فسنن الله ربانية المصدر وهي من أمر الله، فلا غرو أن يكون طابعها الشمول، وهنا نذكر مجموعة من الآيات الإلهية حول هذه الشمولية:

قال عز من قائل: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً}[36]، أي "قضاءً مقضيًا كائنًا ماضيًا"[37].

وقال الحق جل وعلا:{ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [38]، وقال عز وجل: {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}[39]، قال الشيخ أبو السعود:" أي تقديراً وتوقيتاً أو مقداراً وهُو بيانٌ لوجوبِ التوكلِ عليهِ تعالَى ، وتفويضُ الأمرِ

---

[35] سورة الحج: من الآية 14.

[36] سورة الأحزاب: 38.

[37] معالم التنزيل، 358/6.

[38] سورة الرعد: 8.

[39] سورة الطلاق: 3.

إليهِ لأنَّه إذا علمَ أنَّ كلَّ شيءٍ من الرزقِ وغيرِه لا يكونُ إلا بتقديرِه تعالَى لا يبقى إلا التسليمُ للقدرِ والتوكلُ على الله تعالى"[40].

وقال عز من قائل: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[41]، وقال جل ذكره: {وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا}[42]، وقال جل ثناؤه: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا}[43]،

وقال عز سلطانه:{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}[44]؛قال الشيخ البغوي:" قوله تعالى { وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ } حفظناه وعددناه وبيناه، { فِي إِمَامٍ مُبِينٍ } وهو اللوح المحفوظ"[45].

والآيات التي تدل على شمولية السنن كثيرة، تلك الشمولية التي تعني أن السنن الإلهية جامعة لا تقبل التجزئة، وشاملة لكل شؤون الحياة ولكل ميادين النشاط البشري، ولكل القضايا الكبرى في هذا الكون، لا تستثني

---

[40] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 262/8.

[41] سورة هود: 6.

[42] سورة الإسراء: من الآية 12.

[43] سورة النبأ: 29.

[44] سورة يس: من الآية 12.

[45] معالم التنزيل، 10/7.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

مجالا من مجالات الحياة أو جانبا من جوانبها، وليست شمولية مقتصرة على زمن معين وعصر مخصوص، بل شمولية تستوعب الزمن كله، وتستوعب جوانب الحياة كلها، وتستوعب الإنسان كله في الماضي والحاضر والمستقبل.

إنها سنن الله التي جاءت بنواميس شاملة جامعة مانعة، وأخرى مفصلة تفصيلا جزئيا دقيقا؛ تشمل الإنس والجن والملائكة وكل المخلوقات من الدواب والهوام.

فما من ناحية من نواحي الحياة والكون، ومجال من مجالاتهما، إلا وتناولتها السنن الإلهية في القرآن الكريم والسنة النبوية بالنص والفحوى، وأوضحت فيها الخير من الشر، والصحيح من الفاسد، والحق من الباطل، والصدق من الكذب، والطيب من الخبيث، والغث من السمين، في صورة شاملة وكاملة لنظام الحياة في الإسلام الذي يجب أن يقوم على الخير وتنميته، وتجنب الشر والعمل على استئصاله.

تلك الشمولية تتمثل في صور شتى؛ أكبرها رد هذا الوجود كله.. بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحور وكل تغير وكل تطور. والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه... إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة.. هذه الذات. المريدة، القادرة. المطلقة

المشيئة، المبدعة لهذا الكون، ولكل شيء فيه ولكل حي، ولكل حركة، وكل انبثاقة، وكل تحور، وكل تغير، وكل تطور. بقدر خاص.. وبمجرد توجه الإرادة..

فالله سبحانه هو الذي أنشأ هذا الكون ابتداء، وهو الذي يحدث فيه بمشيئته كل تغيير جديد، وكل انبثاق وليد.. [46].

ثم إن هذا الشمول يتناول كل قضية من القضايا بكلياتها وجزئياتها بصورة كاملة جامعة، وبسعة ودقة وتفصيل، لا يحتاج إلى العون من التصورات البشرية المنحرفة الضالة التي صدت الإنسان عن طريقه، وعقدت مسيرته في معرفة ما يتسم به هذا الكون من دقة عميقة، وشمولية واسعة...وتفسير جامع ومفصل التي تدل على وحدانية الخالق Y والإقرار له وحده بالعبودية، وإفراده بالألوهية.

7- التوازن:

يقول الحق جل ثناؤه: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}[47]؛ نقصد بالتوازن ذلك التناسق الفريد في الآفاق؛ في السموات والأرض، في كل

[46] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب ص96.

المخلوقات. ذلك أن هذا الكون ومكوناته تعمل بانتظام وتعاون في خدمة غاية مشتركة، فالكواكب والأفلاك تسير في مسارها المحدد لها دون أدنى خلل أو اضطراب، فهي تتحرك في مداراتها منذ خلقها الله وهي كذلك لا تتصادم ولا تخرج عن مسارها وخطها المرسوم.

فالكون كله بما فيه من كواكب ونجوم وأفلاك ومجرات يسير ضمن سنن الله التي أودعها الله فيه، فهو لا يملك أن يتقدم عليها أو يتأخر ولا يملك أن يعدل فيها أو يغير، أو يبدل ويحول، وإنما هو يسير وفق الناموس الإلهي الذي ارتضاه الله I له، يسير على مقتضى إرادته ومشيئته Y؛فهو مستسلم لأمر ربه خاضع له لا إرادة له ولا اختيار له[48] ولا اختيار فيما قدره الله للكون من الحركة والسكون.

فلا غَرو أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلق الله، وفي أمر الله جميعا، فهو صاحب الخلق والأمر. فظاهرة التوازن، تبدو فيما أمر الله به، وشرعه من الهدى ودين الحق، أي: في نظام الإسلام ومنهجه للحياة، كما تبدو في هذا الكون الذي أبدعته يد الله فأتقنت فيه كل شيء.

---

[47] سورة الملك: من الآية 3.

[48] هذا فيما يتعلق بالأجرام والكواكب؛ أما الإنسان فقد تركت له –سنن الله– الحرية الكاملة في أن يختار لنفسه ما يشاء بينت له طريق الهدى وبينت له كذلك طريق الضلال وتركت له حرية الاختيار لكنه في الأخير يتحمل نتائج ما يختار.

ننظر في هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهار، والظلام والنور، والحرارة والبرودة، والماء واليابس، والغازات المختلفة، كلها بقدر وميزان وحساب، لا يطغى شيء منها على مقابله، ولا يخرج عن حده المقدر له.

وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون الفسيح، إن كلاً منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه، دون أن يصدم غيره، أو يخرج عن دائرته[49].{ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس/ 40].

يقول الدكتور علي جمعة:"يتحدث القرآن عن سنن الله العامة في الكون على أنها دعامة النظام الكوني المتماسك بوشائج التوازن الإلهي الذي يحكم به هذا النظام، فهذا الترابط المحكم بين عوالم الكائنات علويها وسفليها، وهذا التنسيق بين آحاديها ومجموعاتها، وهذه الأوضاع المنسجمة التي تتراءى في وضع كل كائن في مكانه من التركيب الكوني، وهذا الاتساق في تقدير صلة كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر –هو الإطار الذي تجمعت فيه الخطوط التي تصور سنن الله التي يتحقق بها التوازن بين جميع المخلوقات.

---

[49] الخصائص العامة للإسلام، ص128.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

والتوازن بين عناصر الكون ووشائجه هو سنة الله التي دبر بها الكون، وعليها أدار فلك نظامه الإلهي البديع، وهذا التوازن هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وهو الحق الذي خلقت به الحياة.

وبهذا يرسم القرآن العظيم صورة للنظام الكوني في نماذج من المخلوقات، يستبين منها أن الكون كله خاضع في نظام سيره وتركيب عناصره لسنن محكمة وحاكمة، مترابطا بوشائجها في وحدة قائمة على اتساق في وضع وتركيب كل كائن بما يهيء له القيام بأداء ما خُلق له من المنافع والمصالح، ما دام في موضعه من نظام الكون العام. وهذا التماسك والاتساق بين ذرات الكون هو ما نعنيه بالتوازن المحكوم بسنن الله في هذا الكون العظيم [50].

هذا جانب، والجانب الآخر في التوازن، التوازن بين المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية.. فالمشيئة الإلهية طليقة، لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشري جملة. وهي تبدع كل شيء بمجرد توجهها إلى إبداعه. وليست هنالك قاعدة ملزمة، ولا قالب مفروض تلتزمه المشيئة

[50] مقتطف من تقديمه لكتاب السنن الإلهية، لمحمد عاشور، ص8.

الإلهية، حين تريد أن تفعل ما تريد:{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[51].

وفي الوقت ذاته شاءت الإرادة الإلهية المدبرة، أن تتبدى للناس -عادة- في صورة نواميس مطردة، وسنن جارية، يملكون أن يرقبوها، ويدركوها، ويكيفوا حياتهم وفقها، ويتعاملوا مع الكون على أساسها.. على أن يبقى في تصورهم ومشاعرهم أن مشيئة -مع هذا- طليقة، تبدع ما تشاء، وأن الله يفعل ما يريد، ولو لم يكن جاريا على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه، من السنن المقررة والنواميس المطردة. فسنة كذلك –وراء السنن كلها- أن هذه المشيئة مطلقة، مهما تجلت في نواميس مطردة وسنن جارية- ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه في الكون، والتعامل معها، والنظر في مآلاتها- بقدر ما يملك الإدراك البشري- والانتفاع بهذا النظر في الحياة الواقعية[52].

8- الوسطية:

إن الوسطية في كل شيء من أهم ما تميز به الإسلام عن غيره من الشرائع السابقة والقوانين الوضعية، ويقصد بها الاستقامة وعدم

---

[51] النحل: 40.

[52] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، ص124.

الحيدان[53]، كما يقصد بها التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، أو التوسط بينهما؛ بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ويحيف عليه، ولا يأخذ أحدهما الحق أكثر من الآخر ولا ينفرد بالتأثير ويطرد الطرف المقابل.

وفي قوله تبارك وتعالى:{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}[54]، نلمح إشارة قوية إلى الوسطية، فلا وكس ولا شطط، ولا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، في السنن الإلهية.

لقد صان الله قانونه وناموسه الكوني من الاندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك.. هذه الآفات التي لم يسلم منها أي تصور آخر. سواء التصورات الفلسفية، أو التصورات الدينية التي شوهتها

التصورات البشرية، بما أضافته إليها، أو نقصته منها، أوَّلته تأويلا خاطئا، وأضافت هذا التأويل الخاطئ صلب العقيدة[55].

---

[53] الحيدان: مصدر قولك: حاد عن الطريقِ حَيَداناً وحَيْداً وحَيْدةً وحِياداً وحُيودا ومَحيدا وحَيْدودةً : إذا مال عنه.

[54] سورة الفرقان: 67.

[55] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص119.

فالوسطية من مميزات هذه الأمة؛ وتتجلى هذه الوسطية في كل شيء؛ فمثلا ذم الله البخل لكنه ذم كذلك الإسراف، وجعل الإنفاق في سبيل الله هو المطلوب شرعا. قال الحق جل وعلا: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}[56].

وكل نهج خالف خصيصة الوسطية برئ منه دين الله، ولئن أشرك كفار قريش مع الله وجعلوا له أنداد وأنكروا الإله الواحد، فقد غالت أيضا اليهود فقالت عزير ابن الله، وغالت النصارى فقالوا الله ثالث ثلاثة وقالوا المسيح ابن الله -تعالى الله وتقدس عما يقولوا المفترون المضلون علوا كبيرا.

وجاءت شريعة الإسلام بالحنفية السمحة، والوسطية والاعتدال، وبالقول الفصل الذي يعلو ولا يعلى عليه.

كيف لا تتسم السنن الإلهية بخصيصة الوسطية، وهي مستمدة من كلام الله تعالى، على عكس ما نراه في أي نظام يصنعه البشر الذي لا يخلو من التفريط أو الإفراط؛ ذلك أن من المعضلات التي لم تنجح القوانين الوضعية في حلها؛ التطرف في التشريع، فبعض القوانين تجنح إلى أقصى اليسار، وبعض آخر يجنح إلى أقصى اليمين. وقلما يوفق واضعوا القوانين البشرية

---

[56] سورة الرحمن: 7-9.

إلى التوسط والاعتدال في قوانينهم، ذلك أن الوسطية ليست بالأمر الميسور الهين.

لكن السنن الإلهية الربانية المصدر سلكت طريقا وسطا من غير تفريط ولا إفراط؛ فلا هي تضيق الخناق على الناس حتى تملها نفوسهم وتنفر منها قلوبهم. ولا هي أرخت لهم العنان في السهولة حتى تغرق النفوس في أوحال شهواتها وبراثين ملذاتها، وتبلغ منتهى هواها ومآربها.

هكذا تميزت سنن الله بالوسطية؛ بالاعتدال والتوسط دون إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، وصدق الله جل وعلا القائل في كتابه الحكيم:{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[57].

9- الأجل[58]:

قال الحق عز سلطانه: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}[59]؛ أي: لكل كتاب أجل قُدِّم الخبر هنا، ولو أخر لتوهم للسامع أنه صفة، أقول: هذا ما ذهب إليه الضحاك والفراء حيث قالا: "فيه تقديم وتأخير" والمعنى: لكل كتاب أجل،

---

[57] سورة البقرة: من الآية143.

[58] الأجل: المدة المضروبة للشيء. مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة: أجل، حرف الهمزة، ص65.

[59] سورة الرعد: من الآية38.

وقد تعقب أبو حيان هذا القول قائلاً: "ولا يجوز ادعاء القلب إلا في ضرورة الشعر، وأما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب، بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه، إذ ثم أشياء كتبها الله- تعالى- أزلية كالجنة ونعيم أهلها، لا أجل لها".

ولهذا فإن الله تبارك وتعالى قيد كل شيء في هذا الوجود بقدر معلوم إلى أجل معلوم، فيكون معنى الآية: أن لكل أمر قضاه الله كتاباً وأجلاً قد كتبه الله عنده، لا يتقدم ولا يتأخر.

والأجل "يختلف باختلاف الأشياء، والسبب الذي أجلت له. لكن لا ينفك عن الزمن والأجل، ومن هنا كان عامل الزمن ضابطا من ضوابط السنن الإلهية" [60].

وعليه؛ فنلمح مما سبق أن أجل كل شيء يختلف عن الآخر؛ فمنه ما يعد بالشهور نحو قوله جل وعلا: {وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}[61]، ومنه ما يقاس بالعمر كما جاء في قوله تعالى وتقدس: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا}[62]، وقوله عز من قائل:

---

[60] التجديد في دراسة الحديث النبوي الشريف على نور السنن الإلهية، ص122.

[61] سورة الحج: من الآية 5.

[62] سورة آل عمران: من الآية 145.

{وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[63]، وقوله جل ذكره:{ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}[64]، ومنها ما يدوم بدوام الدنيا كقوله تبارك وتعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }[65].

ولولا اتسام سنن الله بهذه الخصيصة للحق بالكافرين العذاب في أول وهلة، قال الحق عز وجل: {وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[66]، وقال الحق جل في علاه: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}[67].

---

[63] سورة المنافقون: 11.

[64] سورة الحجر: 5.

[65] سورة لقمان: 29.

[66] سورة العنكبوت: من الآية 53.

[67] سورة فاطر: 45.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

هكذا ترتبط سنن الله بالأجل؛ فلكل شيء أجل، فإذ جاء أجله فلا يتقدم ولا يتأخر: {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[68].

خاتمة:

إن كل الخصائص التي تنولتها في هذا البحث لا تعطل المشيئة الإلهية، فسنة الله التي تحكم هذا الكون بما فيه هي قدر الله جل وعلا الذي أراد أن تنضبط بهذه الخصائص الربانية.

ولهذا فإن كل من حاول عزل تلك الخصائص وفصلها عن مصدرها وأصلها، ضل الطريق، وغطى شمس الحقيقة بغربال الجهل.

هكذا نجد سنن الله في الحياة البشرية دقيقة تلك الدقة، منضبطة ذلك الانضباط، وهي تعمل مجتمعة متناسقة، فيكون حصيلتها في هذه الحياة ما هو كائن بقدر الله I ومشيئته الأزلية.

ومن ثم فإنه لابد من العمل بمقتضى سنن الله للوصول إلى النتائج المرغوبة والمقاصد المحددة المطلوبة. ومخالفة السنن ومصادمتها ومصارعتها لا يتأتى عنها إلا النتائج الوخيمة المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية المعطرة.

وهذه أهم خصائص السنن الإلهية كما جاءت في هذا البحث:

---

[68] سورة نوح: من الآية 4.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

✓ الربانية: أي أنها مرتبطة بالله تعالى ومسخرة منه، مما ينفي عنها الوقوع في الخطأ أو الظلم.

✓ الثبات: وثباتها وعدم تغيرها أو تخلفها ينفي عنها مقولة دور الصدفة وتدخلها في حركة التاريخ.

✓ الاطراد: أي استمرارها وديمومتها وتتابع حصولها كلما توفرت شروطها وهذا ينفي عنها العشوائية والحتمية.

✓ العموم: أي مفعولها يسري على جميع الأشخاص ولا تفرق بينهم ولا تحيد ولا تحابي أحدا منهم.

✓ الواقعية: واقعية السنن تنفي عنها المثالية والخيال، وتجعلها مرتبطة ارتباطا وثيقا بواقع الناس وما يجري فيه.

✓ الشمولية: وشموليتها يعني أنها لا تقبل التجزئة، وأنها شاملة لكل مجالات الحياة البشرية، ولكل القضايا الكبرى في هذا الكون.

✓ التوازن: أي تتميز بالتوازن الفريد وتعمل بانتظام وتعاون في خدمة غاية مشتركة، دون أدنى خلل أو اضطراب.

✓ الوسطية: أي الاستقامة والاعتدال وعدم الحيدان، فلا تفريط فيها ولا إفراط.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

✓ الأجل: ضابط من ضوابط السنن الإلهية؛ فلكل شيء أجل إذا جاء لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

المصادر والمراجع

1-إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

2-أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة (26) الصادر عن مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر، ط1/المحرم1411هـ.

3-اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، إعادة الطبعة الثانية 1419هـ-1998م.

4- التحفة القُليبية في حل الحمولية في غريب القرآن الكريم، موسى بن محمد بن موسى بن يوسف القُليبي العُمَري المالكي (ت1332هـ)، حققه وعلق عليه: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1/1420هـ-1999م.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

5- **التجديد في دراسة الحديث النبوي على نور السنن الإلهية**، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (3)، محمد جابري، قدم له: أبو أسامة المصطفى عبد القادر غانم الحسني، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط1/جمادى الأولى 1424هـ.

6- **التفسير الكاشف**، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت، ط2/كانون الثاني (يناير)، 1978م.

7- **حركة التاريخ في القرآن الكريم**، ضمن سلسلة: قضايا إسلامية، عامر الكفيشي، دار الهادي، بيروت، ط1424/1هـ-2003م.

8- **الخصائص العامة للإسلام**، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1422/10هـ-2001م.

9- **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، سيد قطب، دار الشروق، ط1426/16هـ-2005م.

10- **الجامع لأحكام القرآن الشهير بتفسير القرطبي**، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تقديم: هاني الحاج، حققه: عماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، مصر، د،ت.

11- سنن أبي داود، أبو داود سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي (202-275هـ)، تحقيق: محمد بربر، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1/1426هـ-2006م.

12- سن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني الشهير بابن ماجه (209-273هـ)،حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط1/د،ت.

13- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور، إشراف: مصطفى محمد الشكعة، تقديم: علي جمعة، دار السلام، القاهرة، ط1/1427هـ-2006م.

14- الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، مطبعة الخلود، بغداد، ط1/1409هـ-1988م.

15- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت425هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ط3/1423هـ-2002م.

16- معالم التنزيل، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى 516 هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4/ 1417 هـ - 1997م.

17- **المعين في تفسير كلام الأصوليين**، عبد الله ربيع عبد الله محمد، دار السلام، القاهرة، ط1428/1هـ-2007م.

18- **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، محمد محمد أمزيان، بيت الحكمة للترجمة والنشر، وجدة، ط1416/3هـ-1996م.

19- **منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية القرض الربوي من أجل السكن -نموذجا-**، ضمن سلسلة الفقه المنهاج (4)، محمد جابري، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط1/د.ت.

20- **الموافقات في أصول الشريعة**، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللَّخمي الغرناطي المالكي الشاطبي (ت 790هـ)، اعتنى بهذه الطبعة الجديدة وخرج آياتها وضبط أحاديثها: إبراهيم رمضان، مقابلة على الطبعة التي شرحها عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط1420/4هـ-1999م.

21- **الفتاوى الكبرى**، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق وتقديم وتعليق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1408/1هـ-1987م.

جامعة القرويين
كلية أصول الدين
-تطوان-

22- فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط3/ 1408هـ - 1988م.